إحياء
Ihyae

دراسة

# تربية القيم الخلقية في ضوء الشريعة الإسلامية

محمد يعقوبي

13 يوليوز 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019

# محتوى الدراسة

تمهيد: الضمير ومدى أهميته في سلوك الإنسان وسعادته

واقع الأخلاق في الجاهلية وانبثاق نور الشريعة الإسلامية

أهمية الأخلاق ومميزاتها في الشريعة الإسلامية

منهج الشريعة الإسلامية في الشريعة الخلقية

مسؤولية التربية الخلقية في الشريعة الإسلامية

نتيجة توجيه الشريعة الإسلامية للحياة الخلقية

خاتمة: واقع وآفاق الأخلاق في الأمة الإسلامية المعاصرة

**الضمير ومدى أهميته في سلوك الإنسان وسعادته**

من المعلوم أن الفرد الإنساني هو اللبنة الأساسية في بناء الإنسانية وهو ذو جوانب متعددة متداخلة ومتكاملة، وهي: جانب الضمير أو الوجدان وجانب العقل أو التفكير، وجانب الجسم أو الصحة ...

ولئن كان كل جانب من هذه الجوانب يتطلب حسن التوجيه والإعداد وصالح التربية لتكوين شخصية الإنسان المتميزة - تكوينا يساعده على تحقيق سعادته الذاتية، ويجعل منه أداة لإسعاد غيره من أفراد أسرته، ومواطنيه، وإخوانه في الإنسانية - فإن أولى تلكم الجوانب بالاهتمام والرعاية هو جانب الضمير أو الوجدان يقصد به - عند أصحاب الدراسات النفسية والتربوية تلكم الملكة التي تجعل الإنسان يميز بين التصرفات الخيرة والشريرة - وفق ما يؤمن به من قيم مختلفة - و تدفعه إلى القيام بما يراه من التصرفات الحميدة، وتثيبه عليها بالرضى والارتياح والطمأنينة... وإلى تجنب ما يراه من التصرفات الذميمة. وتعاقبه عليها بالتأنيب والندم والحسرة...مما يجعل للضمير والوجدان دورا كبيرا في نوع تصرفات الفرد الخلقية، ومدى ما يشعر به من شقاء وسعادة...

وحيث إن الضمير من لوازم النفس البشرية فمن الطبيعي أن تكون الأخلاق ظاهرة اجتماعية في كل المجتمعات الإنسانية مهما كان حظها من الحضارة والمدنية، وإن اختلفت تفاصيل القيم الخلقية من مجتمع إلى آخر حسب ما يتعاور المجتمع من عوامل مختلفة طبيعية واقتصادية وثقافية ودينية... تعمل على تكوين المعايير الخلقية التي يلتجئ إليها

الأفراد لقياس ما يعتبرونه من الأخلاق الحميدة، وما يعتبرونه من الأخلاق الذميمة...

ولما كان الإسلام قد جاء ليستلم قيادة الإنسان - فردا وجماعة وإنسانية... - و فق ما يوحي به الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم - كتابا و سنة - فقد كان مقتضى ذلك أن يكون للشريعة الإسلامية مخططها الخلقي المبني على أساس مهمة الإنسان في الحياة وماله من طبيعة متميزة... وأن تسلك في تربية ضميره وتوجيه سلوكه منهجا ذا مسالك متعددة يتجاوب مع سائر نوازع النفسية... وأن تحمل مسؤولية تلكم التربية وذلكم التوجيه كل الفعاليات التي من شأنها أن تساهم في العملية التربوية ... - فيكون نتيجة كل ذلك - في سلفنا الصالح - إسعاد الفرد في الدنيا قبل الآخرة، وازدهار وتكون الحضارة الإسلامية بشخصيتها المتميزة ...

وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [المائدة: 15، 16]

وتفصيلا لهذا الإجمال فإن حديثي عن: "تربية القيم الخلقية في ضوء الشريعة الإسلامية" يتناول المباحث التالية:

1. واقع الأخلاق في الجاهلية... وانبثاق نور الشريعة الإسلامية.
2. أهمية الأخلاق ومميزاتها في الشريعة الإسلامية
3. منهج الشريعة الإسلامية في الشريعة الخلقية

4. مسؤولية التربية الخلقية في الشريعة الإسلامية
5. نتيجة توجيه الشريعة الإسلامية للحياة الخلقية
6. خاتمة: واقع وآفاق الأخلاق في الأمة الإسلامية المعاصرة

ومن الله سبحانه نستمد العون والهداية.

## 1. واقع الأخلاق في الجاهلية وانبثاق نور الشريعة الإسلامية:

إن العرب في الجاهلية كانوا يكونون مجتمعا بشريا له ظروفه الطبيعية القاسية المتميزة، وعلاقاته الداخلية بين مختلف وحداته الاجتماعية ... وعلاقاته الخارجية التي مكنته من الاطلاع على ما عند الأمم المجاورة من ديانات مسيحية ويهودية ... ومجوسية ومزدكية ... وثقافة فارسية وهندية ورومانية ويونانية...

كل ذلك وغيره قد ساهم في تكوين ما عرفه المجتمع العربي في الجاهلية من تفكير وواقع خلقي في جانبيه: الإيجابي والسلبي:

فشجاعة الجاهلي وكرمه ووفاؤه وحياؤه وعفته وإباؤه للضيم... كما أن نهبه وشدته وجفاءه وغضبه ونصرته لمن هو من عشيرته ظالما أو مظلوما، ومعاقرته للخمر وطلبه للذة الجنس... كل ذلك مسجل فيما خلفه لنا العرب من آثار أدبية شعرية ونثرية...

وإذا استطاعت تلكم الصفات المتناقضة - في نظرنا اليوم - أن تتعايش في نفس المجتمع، فما ذلك إلا لأن ذلك العرف الجاهلي - وهو الذي قد ساهمت في تكوينه كل العوامل المتباينة السابقة - قد أقرها جميعها،

وحدد الظروف التي يكون فيها التصرف محمودا أو يكون هو نفسه مذموما في نظر الجماعة ...

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن محور الأخلاق ومعيارها عند العرب في الجاهلية، هو العرف أو ما نسميه في وقتنا الحاضر بالرأي العام حيث إن الواحد منهم لا يتصرف أي تصرف إلا وقد وضع نصب عينيه ما يناله من حسن أو سوء ذكر وسط الجماعة، والشواهد على ذلك من تراثهم الأدبي كثيرة.

فهذا **عبد قيس بن خفاف** يقول:

**والضيف أكرمه فإن مبيته حق ولاتك لعنة للنـزل**

**واعلم بأن الضيـــف مخبـر أهلـــه مبيت ليلته وإن لم يسأل**

وهذا **حاتم الطائي يقول** مخاطبا امرأة:

**وإذا صنعت الزاد فالتمسي له كيلا فإني لست آكله وحـدي**

**أخا طارقا أو جار بيت فإننـي أخاف مذمات الأحاديث من بعدي**

وهذا **عمرو بن الهيثم** يقول:

**وكل كريم يتقـي الذم بالقـرى وللحق بين الصالحيـن طريـق**

أما على الصعيد العالمي فلقد جاء الإسلام في القرن السابع الميلادي والمجتمع الإنساني يعاني دورا من أدوار الوهن والانحلال... أشرف فيه على الدمار والفناء بسبب ما أصاب العقائد من تخريب والضمائر من تلويث والمثل العليا من تشويه... فانعكس أثر ذلك على سلوك الفرد والجماعة وعلاقات المجتمعات فيما بينها:فكان سلوكا يتسم بالسعار اللاهث وراء اقتناء اللذات الغريزية المختلفة، والاعتداء السافر والمتستر على ما للضعفاء من حقوق طبيعية، والتجبر والغطرسة من كل صاحب سلطة وقوة ... والشغف بالحروب والغارات لأسباب واهية وتافهة. تذهب ضحيتها الآلاف المؤلفة من النفوس البشرية البريئة... ولكل ذلك استحق أن يسمى العصر الذي سبق الإسلام بعصر الجاهلية بكل ما تحمله من دلالة ...

وبينما الدنيا سادرة في غيها متمادية في ضلالها - ضلال العقيدة والأخلاق الرذيلة ... - إذا بنور الإسلام يطلع على الإنسانية لينقذها مما تعانيه من محن وآلام جسيمة ... وذلك بما حده لها من أحكام شرعية وما أرشدها إليه من مثل عليا و مقاييس صحيحة ... لتسير في ضوئها إلى ما يسعدها في الدنيا والآخرة بخطى ثابتة مطمئنة ... وصدق الله العظيم القائل في هذه الآية: **{جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [المائدة: 15، 16].

## 2. أهمية الأخلاق ... ومميزاتها في الشريعة الإسلامية:

ولما كان الإسلام قد جاء ليستلم قيادة الإنسان - فردا وجماعة وإنسانية - وفق ما يوحي به الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم -كتابا وسنة - فقد كان من البديهي أن يكون للشريعة الإسلامية مخططها الخلقي المبني على أساس ما يحدده الله تعالى للإنسان في هذه الحياة من مهمة، وما يمتاز به من طبيعة بشرية ... مما جعل الأخلاق في ظل الإسلام تتسم بكثير من المميزات الإيجابية.

مهمة الإنسان في الحياة والتي سيجازيه الله على مدى التزامه بأدائها في الحال والمال في استخدام سائر إمكاناته المادية والمعنوية في سبيل أداء أمانة الاستخلاف عن الله في الأرض بإعمارها بكل خير في دائرة العبودية المطلقة لله عز وجل:

فالإنسان مستخلف عن الله في الأرض بدليل قوله تعالى: {**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**} [البقرة: 30]

والإنسان مكلف بإعمار الأرض بغاية ما يستطيع من خير بدليل قوله تعالى: {**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**} [الملك: 1، 2]

والإنسان لا يكون فاعلا للخير إلا في دائرة العبودية المطلقة لله عز وجل بدليل قوله تعالى: **{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** [البينة:5]

وقوله سبحانه: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات: 56]

ثم إن الإنسان مجازى على مدى أدائه لتلكم الأمانة الخطيرة بدليل قوله سبحانه: **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}** [النساء: 123، 124]

ولما كان الإنسان بمفرده قاصرا - بطبيعته - عن الإدراك الحقيقي للخير المطلق والشر المحض فيما يأتيه وما يذره من التصرفات المختلفة ... وكان الله سبحانه هو الخالق لعباده، والفاطر لعقولهم وغرائزهم والأدرى بمصالحهم، والأعلم بالصراط السوي الذي يؤلف انسجاما متكاملا بين مطالبهم المادية وأشواقهم الروحية ... وذلك مصداقا لقوله تعالى: **{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216] وقوله تعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}** [النساء: 19]

لهذا وذاك فإن الله سبحانه قد عمد إلى بعض التصرفات فطالبنا بها ووعد الملتزمين بها جزاء حسنا، وعمد إلى بعض التصرفات الأخرى فنهانا عنها - نهي تحريم أو كراهة ... فدلنا بذلك على أن الصنف الأول من التصرفات يعتبر خيرا ومن الأخلاق الفاضلة ، وعلى أن الصنف الثاني من التصرفات يعتبر شرا ومن الأخلاق الرذيلة ... و بذلك أصبحت الأخلاق واضحة المعالم والصوى منضبطة بالحكم الشرعي - أمرا ونهيا - و تحقق الهدف من البعثة المحمدية الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم - رواه البخاري في الأدب و غيره - : **"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"** .

يقول الشيخ عمر بن أحمد عبد الرحيم الخواض :(... لقد أشاد الإسلام بالخلق وأعلى من شأنه، بل جعله محور رسالته ... فقد لخص رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته كلها بقوله: **"بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"** وقد شهد القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله: **(وإنك لعلى خلق عظيم)** -القلم :4 - و قال صلى الله عليه وسلم: **"أدبني ربي فأحسن تأديبي".**

وبالرغم من أن الدعوة قد تضمنت عقيدة كاملة وشريعة ذات أصول وفروع، وقواعد تنظم كل شؤون الحياة إلا أن تلخيصها في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **"بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"** والشهادة في القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم بالخلق العظيم يجعل من الأخلاق محور التشريع في العقيدة والشريعة، في جميع أصولها وفروعها وقواعدها ... ولعل فيما رد به ابن أبي طالب على وفد قريش أمام النجاشي ما يؤيد ما أشرنا إليه بوضوح وجلاء من أن الخلق هو القاعدة الأساسية التي يقوم عليها صرح الإسلام.

فلقد جاء في سيرة ابن هشام: أنه عندما اشتد أذى قريش للمسلمين بمكة في أول الدعوة - أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه بالهجرة إلى الحبشة، وأرسلت قريش من ورائهم وفدا ليثير النجاشي عليهم، ويعيدهم إلى قريش. فاستمع النجاشي ... " ... أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام و نأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ... فكنا على ذلك حتى بعث إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله وحده

لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والصيام والزكاة ... فصدقناه و آمنا به و اتبعناه على ما جاءنا به من الله ... "

فالانقلاب الذي أحدثه الإسلام في المجتمع الجاهلي انقلاب خلقي بحت، انقلاب في القيم والمثل وارتفاع بمستوى الإنسان من حضيض المادة ومستوى الوحوش إلى ما يليق بكرامة الإنسان، ووضعه كخليفة لله في
الأرض ...

ولما كان ما يتحلى به النبي صلى الله عليه وسلم من خلق عظيم هو السبب في تلقي المسلمين لدعوة الإسلام بالقبول لأنهم يعرفون صدقه وأمانته وعفافه - كذلك كان إيمان الرعيل الأول بالإسلام وقيمه، وما دعا إليه من الفضائل التي عبر عنها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هي القواعد التي استندت إليها الدعوة في الجزيرة العربية وخارجها، وهي التي مهدت لانتشار الإسلام وفتحت القلوب لقبوله واحتضانه ...[1]

وهكذا أصبحت الأخلاق في المخطط الخلقي للشريعة الإسلامية تتسم بالمميزات الإيجابية التالية:

---

[1] الإسلام وتنظيم الأسرة ـ الاتحاد العالمي لتنظيم الوالدية
ج .1 ص. 153/152.

أ. **الربانية**: حيث أن مصدرها والمطالب بها هو الله تعالى، وبذلك كانت فوق الهوى الشخصي، وفوق رأي أي مفكر أو مصلح أو رئيس ... وفوق قوانين المجتمع وعاداته وتقاليده ... بل إن كل ذلك يتصادم مع ما تقرره الشريعة يصبح طاغوتا وباطلا ويجب محاربته ... قال تعالى: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}** [النساء: 65]

وقال تعالى: **{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}** [النساء: 59- 60]

ب. **الشمولية :** حيث تشمل سائر مرافق الحياة من أعلاها إلى أدناها، وعلى سائر المستويات الفردية والاجتماعية والإنسانية ... إذ لم يبق جانب من جوانب الحياة الإنسانية - عقيدة وعبادة وتشريعا ومعاملة - إلا وصيغ في الإسلام صياغة خلقية كاملة، ولم تبق قضية من قضايا الإنسان إلا وبين الإسلام - نصا أو دلالة - ما يجب أن ينبغي له يأتيه منها أو يذره منها ... مصداقا لقوله تعالى: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}** [المائدة: 3].وقوله تعالى: **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}** [الأنعام: 38]

ج. **الإلزامية :** حيث إنها أحكام إلهية يجازي عليها الحق سبحانه وتعالى بنفسه: **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة: 7، 8]. ولذلك فإنه يلزم الالتزام بها مهما عظمة مشقة تنفيذها وتعارض ذلك مع هوى النفس وميولها ... إذ **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}** [الأحزاب: 36].

د. **الاستمرارية**: حيث إنها لا تخضع للتغيير والتبديل حسب الأهواء والميول واختلاف الأمزجة والعقول ... وإنما هي منضبطة دائما وأبدا بنصوص الشريعة ومبادئها العامة ... ومن ثم فإن كل خروج عنها يعتبر منزلقا إلى الضلال والغواية ... ولذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه - **" تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبدا كتاب الله وسنتي..."**ويقول - فيما رواه مسلم وغيره - **"كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد".**

ولقد أشار جلالة الملك الحسن الثاني إلى هذه المميزات ضمن ما تتميز به الشريعة من مميزات وخواص، وذلك عندما قال حفظه الله: "... وإن من تيسير الله لنا في معالجة شؤون الدنيا وشؤون الدين أن جعل الشريعة الإسلامية التي أكرمنا بها شريعة فطرية في مبادئها منطقية في أحكامها، قادرة على استيعاب مراحل التطور بأجمعها مستجيبة لحاجيات المجتمعات على اختلاف مستوياتها وأنواعها، صالحة للتطبيق في كل عصر وجيل دون الحاجة إلى إدخال أي تغيير على مبادئها أو تبديل، ففي

نطاق مبادئها وقواعدها والمحافظة على روحها يمكن لكل مجتمع أن يبلغ غاية ما يطمح إليه من التطور والنمو والكمال والسمو، بل كلما تقدمت البشرية خطوة إلى الأمام، وجدت مثل الإسلام العليا سابقة لها متقدمة عليها تضيء لها الطريق على الدوام ...".

[من رسالة جلالته إلى العالم الإسلامي بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري].

### 3. منهج الشريعة الإسلامية في التربية الخلقية:

ولما كانت علاقة الله بالإنسان في الشريعة الإسلامية ترمي إلى إعداد الإنسان وحسن تربيته حتى يستخدم سائر إمكاناته المادية والمعنوية في سبيل أداء أمانة الاستخلاف عن الله في الأرض بإعمارها بغاية ما يستطيع من خير في دائرة العبودية المطلقة لله عز وجل ... وكان الإنسان إنسانا - بكل سلبياته وإيجابياته، وماديته وروحانيته ... - وليس ملكا كريما ولا شيطانا مريدا - فقد سلك الإسلام في تربية ضميره الخلقي مسالك متعددة. تكون في مجموعها ما يمكن أن نسميه ب: "منهج الشريعة الإسلامية في التربية الخلقية".

ومن تلكم المسالك، المسالك التالية:

1. **مسلك التحصين والتدريب:**

حيث نجد الشريعة الإسلامية قد عملت على توجيه حياة الفرد الوجدانية بما بثته في ضميره من عقائد مختلفة وعمقت شعوره

بمسؤوليته عن تصرفاته بما شرعته له من عبادات متعددة مما يجعل المؤمن دائما في ركاب الخير والتصرفات المثالية.

### أ. العقائد الإسلامية... والتربية الخلقية:

فمن العقائد الإسلامية ذات التأثير البالغ الأهمية في تحصين وتدريب المؤمن على الأخلاق المثالية نذكر العقائد التالية:

1. الإيمان بعنصري الشهادة حيث أن المؤمن بأن "لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" يتحرر من كل السلط غير الشرعية سواء كانت منبعثة من داخل النفس - كالهوى و الشهوة - أو منبعثة من المجتمع - كالعادات والتقاليد والقوانين الوضعية ...-فيسلس زمامه في تصرفاته كلها لله تعالى وأحكامه التي بلغته بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم ... منها يتلقى معايير الخير والشر والفضيلة والرذيلة ... ولا يقبل أن يتلقى ذلك من غيرهما بدون دليل شرعي يعتد به ... إذ **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}** [الأحزاب: 36].

2. الإيمان برقابة الله المستمرة: حيث إن المؤمن بهذه الحقيقة يربي في نفسه ووجدانه حاسة الشعور بأن الله سبحانه رقيب على كل تصرفاته بحيث لا تخفى عليه منها خافية لا في السر ولا في العلانية... فيحرص الحرص كله على أن تكون وفق ما تأمر به الشريعة... كيف لا وهو موقن بمصداقيته قوله تعالى: **{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ**

**بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [الملك: 13، 14].

3. الإيمان بيوم القيامة حيث يلقى الإنسان جزاء ما قدمت يداه **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة: 7، 8]. فالإيمان يربي في الإنسان حاسة المحاسبة لنفسه محاسبة دقيقة فلا يقدم على عمل حتى يضع نصب عينيه ما يناله عليه من جزاء لا محالة ... قال تعالى: **{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [البقرة: 281].

4. الإيمان بالقضاء والقدر وإن ما أصاب الإنسان ما كان ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه يربي لدى الإنسان عنصري الشجاعة في الحق واتزان الشخصية... فيحرص على أداء ما أوجبه الله عليه مهما كانت النتيجة وهي لن تكون مرضية لا محالة، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة... ومن ثم فإنك تجد المومن متزن الشخصية لا تذله الفاقة ولا تبطره النعمة إذ أنه يومن بمصداقية قول الله تعالى: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}** [الحديد: 22، 23] - و قوله تعالى: **{فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}** [النساء: 19] - و من ثم فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم وغيره - **"عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن".**

وهكذا فإن سائر عقائد الشريعة الإسلامية من شأنها أن توجه ضمير ووجدان الفرد المسلم توجيها يقيه من الوقوع في الخطيئة، ويجعله دائما في ركاب الخير والفضيلة.

**ب.العبادات الإسلامية والتربية الخلقية:**

وتأتي بعد ذلك العبادات الخاصة في الشريعة الإسلامية - من صلاة وزكاة وصوم وحج لتزود المؤمن - بالإضافة إلى جانبها التعبدي وتنميتها للعقيدة - بشحنات روحية من شأنها أن تعمق في وجدانه الشعور بالمسؤولية وتقيه من الوقوع في الخطيئة وتجعله متشبثا باستمرار بالقيم المثالية ... لو أديت على وجهها الصحيح وقصد بها وجه الله العظيم:

1. فالصلاة فرضت خمس مرات في اليوم والليلة ليقف العبد أمام مولاه في كل مرة وقفة محاسبة على ما قدمه من أعمال خيرة وشريرة ... فإن كانت الأولى طلب من الله مزيدا من التوفيق والهداية ... وإن كانت الأخرى طلب منه سبحانه الهداية حتى يقابله في المرة القادمة و قد أُقلع عن كل غواية وخطيئة ... وبذلك تحقق الصلاة الهدف الذي حدده الله في هذه الآية: **{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}** [العنكبوت: 45] - وتكون هي الصلاة المقبولة كما يفهم من هذا الحديث الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة: **قال الله عز وجل: "ليس كل مصل يصلي، إنما تقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكف**

**شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، علي أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة نورا، يدعوني فألبيه ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها ولا يتغير حالها"** -رواه الديلمي -

2. والصوم فرصة تدريبية وتربوية لعنصر الإرادة حيث يتدرب المؤمن على إيثار الله سبحانه بالطاعة على كل شهوة. مهما كان مبلغها من القوة... مما يربي في النفس ملكة التقوى و الخشية و يجعلها تقلع عن مختلف ضروب المعصية و تخضع لما أمر الله به من أخلاق فاضلة ... و بذلك يحقق الصيام الهدف الذي حدده له الله سبحانه في هذه الآية: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 183] - و لن يفضي الصيام إلى تحقيق تلكم الغاية المرجوة إلا إذا كان على الكيفية التي حددها النبي صلى الله عليه وسلم في أحد الأحاديث القدسية التي أخرجها البخاري ومسلم عن أبي هريرة: قال الله عز وجل: (**كل عمل ابن آدم إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة فإذا كان يوم صيام أحدكم فلا يرفث ولا يصخب - فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم ...**) الحديث وفي حديث آخر رواه البخاري **"من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة بأن يدع طعامه وشرابه".**

3. والزكاة -وكذا الصدقات التطوعية - تربية ممتازة لخلق الإيثار والمشاركة الوجدانية للمعوزين وذوي الحاجة وتطهير للنفس دون الأنانية البغيضة التي تشعر بنفسها ولا تشعر بالآخرين من الفقراء وذوي الخصاصة ... ومساهمة فعالة في تسيير عجلة المجتمع ومصالحه العامة ... وشكر لله على ما جاء به من نعمة ... فتكون بكل ذلك كما وصفها الله تعالى في هذه الآية: **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [التوبة: 103] والنفس متى ما طهرت من داء الأنانية وزكيت بخلق المشاركة إلا وكانت لكل خير مستعدة، ولكثير من أبواب الشر مغلقة، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبراني من أحاديثه الشريفة: **"الصدقة تسد سبعين بابا من أبواب السوء".**

4. الحج - وكذا العمرة - ميدان تطبيقي للأخلاق الإسلامية السامية، وفرصة للتدريب على معاملة الآخرين معاملة مثالية، وعزم أكيد على الاتصاف بالتقوى والإقلاع عن كل ذنب ومعصية ... وسط أخوة في الله جمعهم الإيمان به فلبوا نداءه لغفران ذنوبهم، لعلهم يعودون وقد ابيضت صحائفهم فيستحبون أن لا يلطخوها من جديد بأي ذنب أو سلوك يجافي الخلق الحميد ... قال تعالى: **{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}** [البقرة: 197] - و قال النبي صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة - **"من حج فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"** -

وقال صلى الله عليه وسلم أيضا - فيما أخرجه البخاري ومسلم - **"العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة".**

وهكذا يتبين لنا أن سائر العقائد والعبادات في الشريعة الإسلامية من شأنها أن توجه الفرد إلى التمرس بالفضيلة وإلى مجانبة كل ضروب الرذيلة، ولذلك أطلقنا على هذا المسلك مسلك التحصين والتدريب.

2. **مسلك الحزم والتشديد:**

ويتجلى هذا المسلك للشريعة الإسلامية في عدالة الوعد والوعيد، وفيما حددته لمختلف الجرائم من حدود وتعازير.

أ. **عدالة الوعد والوعيد:**

فالله تعالى قد وعد الإنسان على الإنسان إحسانا يساويه و أوعده على السوء سوءا يساويه ... مما ينسجم تمام الانسجام مع العدالة الكاملة لله سبحانه و تعالى ... قال تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}** [فصلت: 46] - وقال: **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: 123، 124] -** وقال: **{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة: 6 – 8]

**ب. فرض تطبيق الحدود والتعازير:**

كما أن الله تعالى فرض تطبيق عقوبات دنيوية على الجناة من شأنها أن تمنع التصرفات التي ينتج عنها الإخلال بنظام المجتمع وأمنه بإلحاق ضرر بأفراده في حياتهم أو ذواتهم أو عقولهم أو أعراضهم أو نسلهم أو أموالهم أو دينهم ... وذلك بما نص عليه من حدود، و فوض فيه لأولي الأمر في المجتمع من إحداث تعزيرات تناسب ظروف المجتمع و تكون كفيلة بإصلاح المسيء و منع استفحال خطره ... انطلاق من قوله تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 179].

والحدود التي نصت عليها الشريعة الإسلامية هي:

**1.** حد القتل العمد العدوان، وفيه يقول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 178، 179].

**2.** حد الجناية على الأطراف عمدا حيث يقول تعالى: **{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [المائدة: 45] - وهو حكم لم يرد في شريعتنا ما ينسخه.

**3.** حد الحرابة وهي إقلاق الأمن العام من قبل عصابة مسلحة - وفيه يقول تعالى: **{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [المائدة: 33، 34] - وذلك على تفصيل يذكر في كتب الفقه والتفسير.

**4.** حد السرقة وفيه يقول تعالى: **{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [المائدة: 38].

**5.** حد قذف الآخرين بالزنى من غير بينة معتبرة شرعا، وفيه يقول تعالى: **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [النور: 4، 5]. وقد بينت السنة أنه لا فرق في عقوبة القذف بين الرجل والمرأة.

**6.** حد الزنى: وفيه يقول تعالى: **{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** [النور: 2]. إذا كانت الزانية والزاني لم يسبق لهما زواج وإلا فإن الحد هو الإعدام رجما بناء على قول النبي صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخاري

ومسلم - **"لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".**

**7.** حد شرب الخمر: وفيه روى مسلم عن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يضرب في الخمر بالجريد والنعال أربعين، وقد ثبت عن علي كرم الله وجهه أنه قال: **"جلد النبي صلى الله عليه وسلم في الخمر أربعين وجلد أو بكر أربعين وعمر ثمانين - وكل سنة - وهذا أحب إلي"** مما يفهم منه أن لأولي الأمر أن يزيدوا في حد شارب الخمر على أربعين جلدة إلى ثمانين جلدة على وجه التعزير.

**3. مسلك الرفق والإحسان:**

ويتجلى هذا المسلك للشريعة الإسلامية في الوعد بمضاعفة الثواب وفتح باب التوبة ورجاء المغفرة:

**أ. الوعد بمضاعفة الثواب على الإحسان:**

فتشجيعا للإنسان على أن يسلك دائما طريق الخير فإن الله سبحانه يعد المحسن بمضاعفة الثواب أضعافا كثيرة فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء ... قال الله تعالى: **{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا}** [الأنعام: 160] - وقال: **{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [البقرة: 245] - وفي آية أخرى: **{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}**

[البقرة: 261] - إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اتساع رحمة الله سبحانه وواسع كرمه.

**ب. فتح باب التوبة والغفران للعصاة:**

وحتى لا ييأس الإنسان الواقع في المعصية - بحكم طبيعته البشرية غير الملائكية وغير المحصنة بعصمة النبوة - فيتمادى في الضلال والغواية - فإن الشريعة الإسلامية قد فتحت أمامه أبواب التوبة النصوح في كل لحظة - وشجعته على ولوجه في أقرب فرصة ... بالإقلاع عن الذنب بالمرة، والإنابة إلى رحاب الاستقامة والأعمال الصالحة ... وذلك عندما خاطبه الحق سبحانه بهذه الآيات القرآنية: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56)، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}** [الزمر: 57 - 59].

بل إن التوبة النصوح يبدل الله بها السيئات حسنات في الأجر والمثوبة، بمقتضى قوله تعالى: **{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}** [الفرقان: 70، 71] - وعن أبي هريرة قال:

**"ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم استكثروا السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة ؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات".**

والتوبة الشرعية هي التوبة النصوح التي قال فيها الإمام النووي: "قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله - لا تتعلق بآدمي - فلها ثلاثة شروط: أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدا، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها: فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها ... ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي".[2]

وهكذا تكون التوبة النصوح علاجا لما يتردى فيه الإنسان من معصية وسبيلا إلى الأوبة إلى رحاب الخير والفضيلة.

### 4. مسؤولية التربية الخلقية في الشريعة الإسلامية:

إن مسؤولية التربية الخلقية في الشريعة الإسلامية تقع على الأبوين والمربين وعلى الفرد المسلم نفسه ثم على أولي الأمر في المجتمع من علماء وأصحاب سلطة ... وذلك بمقتضى قول النبي ﷺ: فيما رواه البخاري ومسلم - **"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته: فالإمام راع وهو**

---

[2] منهل الواردين ـ د: صبيحي الصالح ج: 1 ص. 52/51.

**مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ... فكلكم راع ومسؤول عن رعيته".**

نعم، إن نوع المسؤولية التربوية يختلف باختلاف الأفراد في طبيعة مواقفهم الاجتماعية:

**أ. مسؤولية الآباء والأمهات:**

بمقتضى شكر ما أنعم الله به عليهم من نعمة الذرية وما عليه الأطفال من طبيعة فطرية ساذجة، وبحكم ما ركب في النفوس السوية من غريزة والدية - فإن عليهم أن يبذلوا النفس والنفيس في سبيل حسن تعهد أبنائهم بالتوجيه وصالح التربية ... حتى إذا ما خلفوهم في المجتمع المقبل عاشوا حياة طيبة كريمة فكانوا سعداء في أنفسهم نافعين لذويهم خادمين لأوطانهم مساهمين في ترقية وازدهار أمتهم. كل ذلك في إطار من تطبيق تعاليم دينهم مما يؤهلهم للسعادة الأبدية عند ملاقاة ربهم ... و بذلك يكون الآباء قد عملوا على إنقاذ أبنائهم من نار الجحيم كما أمر الله تعالى عندما قال في كتابه المبين: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}** [التحريم: 6] وفي مقدمة الأهل - الأبناء والبنات، ووقايتهم من النار تكون بهدايتهم إلى مواطن الخير والابتعاد عن مواطن الشر ... وإنما يتحقق ذلك بحسن التربية التي هي أعظم وأنفس هدية يقدمها الكبار

للصغار - كما قال النبي صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه الترمذي - **"ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن"**. وأخرج ابن ماجة من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم"**.

وهكذا تكون تربية الآباء والأمهات للأبناء والبنات لونا من أزكى ألوان الطاعات، وأمانة من أجل الأمانات، وسيسأل الإنسان عنها بعد الممات بمقتضى ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال - فيما رواه النسائي- **"إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته"** وفي مقدمتهم أبناؤه وبناته ... وكيف لا يقوم هؤلاء بهذا الواجب والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث المشهور: **"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم يبثه في صدور الرجال وولد صالح يدعو له"** - رواه البخاري ومسلم.

وما قلناه عن مسؤولية الآباء والأمهات في التربية الخلقية نقوله عن المؤطرين للعملية التربوية في المجتمع من معلمين وأساتذة في الروض والمدرسة والإعدادية والثانوية والجامعة ... إذ كلهم مسؤولون عن متابعة تربية الناشئة ... والنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه البخاري ومسلم - **"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"**.

**ب. مسؤولية الفرد المسلم:**

وأما الفرد المسلم فإنه مسؤول عن تصرفاته مسؤولية شخصية، فعليه أن ينفذ ما ثبت لديه أنه خير ويتجنب ما تيقن أنه شر ... وعليه أن يدفع الآخرين من أفراد مجتمعه إلى السلوك الطيب. لا أن يعرف ذلك مجرد معرفة نظرية ويعتزل الحياة. قال تعالى: **{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** [التوبة: 105] - وقال: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}** [النحل: 125].

وسواء أحسن الفرد في تصرفاته أو أساء فهو الذي سيلقى نتيجة ما قدمت يداه من ثواب أو عقاب ... قال تعالى: **{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى}** [النجم: 39 - 41] - وقال تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}** [فصلت: 46] - وقال: **{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}** [الإسراء: 7].

ومعنى هذا أن الإسلام لا يقول بفكرة الخطيئة الموروثة، وتحمل الخلف ذنوب السلف ولا العكس، قال تعالى: **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}** [النساء: 123] - وقال سبحانه: **{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**

**وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}** [فاطر: 18].

**ج. مسؤولية أولي الأمر من العلماء:**

وأما مسؤولية أولي الأمر من العلماء عن التربية الخلقية فتظهر في تكليف الشريعة لهم بالقيام بدور التوعية الدينية عن طريق نشر التعاليم الإسلامية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... و ذلك بمقتضى قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}** [التوبة: 122].

جاء في تفسير المنار - شرحا لهذه الآية - والآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين، والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة، وتفقيه الناس على الوجه الذي يصلح به حالهم و يكونون هداة لغيرهم، وإن من المتخصصين لهذا التفقه بهذه النية لا يقلون في الدرجة عند الله من المجاهدين بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الأمة والملة بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع عينيا - والدلائل على هذا كثيرة.[3]

فإذا تقاعس العلماء عن القيام بذلك الدور الخطير في تربية وجدان الأمة وأخلاقها دخلوا في الوعيد الشديد المنصوص عليه في قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا**

---

[3] تفسير المنار - ج: 11 ص. 78.

**بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [البقرة: 159، 160].

جاء في تفسير ابن كثير: "هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله وقد نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة ﷺ، وفي الحديث: **"من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار"**[4] .

وجاء في تفسير المنار: " ثم إن العبرة في عموم الآية أن حكمها عام، وإن كان سببها خاصا، فكل من يكتم آيات الله وهدايته فهو مستحق لهذه اللعنة"[5].

وقال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** [البقرة: 174، 175] - وقال تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}** [آل عمران: 187].

---

[4] تفسير المنار - ج: 1 ص. 78.

[5] تفسير المنار - ج: 2ص. 52.

جاء في مختصر تفسير ابن كثير: "هذا توبيخ من الله و تهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأن ينوهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله اتبعوه ... فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف ... فبئست الصفقة صفقتهم و بئست البيعة بيعتهم ... وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما لديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا"[5].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه أصحاب السنن - **"والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه تدعونه فلا يستجاب لكم".** وبناء على ما سبق من آيات وأحاديث فقد قال الإمام الشاطبي: "ولا خلاف في وجوب البيان على العلماء، والبيان يشمل البيان الابتدائي والبيان للنصوص الواردة والتكاليف الموجهة، فثبت أن العالم يلزمه البيان من حيث هو عالم"[6].

وإدراكا من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله لجسامة مسؤولية العلماء فإننا نجده ينادي بضرورة العمل على مساعدتهم على القيام بدورهم، ويرسم لهم الخطة المثالية للقيام برسالتهم فيقول حفظه الله في رسالته إلى العالم الإسلامي بمناسبة مطلع

---

[6] الموافقات ج. 3 ص.179.

القرن الخامس عشر الهجري: "فمن واجب القادة المسؤولين والزعماء البارزين في العالم الإسلامي أن يفتحوا الطريق أمام القائمين بالبعث الإسلامي والدعوة الإسلامية وأن يشملوهم بالرعاية الكافية حتى يؤدوا رسالتهم أحسن أداء. كما أن واجب دعاة الإسلام أنفسهم أن يجتمعوا على كلمة سواء، ويدعموا فيما بينهم روابط التضامن والإخاء وأن يعملوا على أن تكون دعوتهم خالصة لوجه الله يسودها طابع التعاون، والصفاء، فبالتخطيط الإسلامي المحكم، والعمل المتواصل المنظم للدعوة الإسلامية الموحدة يتغلب المجتمع الإسلامي على كثير من الأزمات ويتصدى بفعالية ونجاح لمواجهة كثير من التحديات ويمارس مسؤولية تطوره ونموه بنفسه في نطاق حضارته دون أدنى تبعية ولا ضغوط خارجية" [في رسالة جلالته إلى العالم الإسلامي بمناسبة مطلع القرن 15 الهجري].

**د. مسؤولية أولي الأمر من أصحاب السلطة:**

وتأتي بعد ذلك مسؤولية أصحاب السلطة في المجتمع عن توجيه الوجدان وتربية الأخلاق حيث يلزمهم القيام بهذه المسؤولية من جوانب أربع رئيسية، وهي:

**1.** جانب تربوي ويتجلى في إنشاء المؤسسات التربوية العامة - من ناد ومدرسة وإذاعة وتلفزة ... - وطبعها بالطابع الإسلامي لتكون وسيلة إلى التربية وإشاعة الفضيلة.

**2.** جانب وقائي ويتجلى في مراقبة سلوك المواطنين رقابة مستمرة تمنع الأشرار من الانطلاق في تحقيق أهوائهم وأنانيتهم

الفاجرة ... وقديما قال الإمام الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

**3.** وجانب علاجي ويتجلى في تطبيق الحدود الإسلامية وتشريع وتنفيذ التعازير القانونية عن كل الأعمال المنافية للأخلاق الفاضلة، ويتسبب فعلها في الإخلال بنظام المجتمع وأمنه بإلحاق ضرر بأفراده في حياتهم أو ذواتهم أو عقولهم أو دينهم أو أعراضهم أو أقوالهم ... وذلك انطلاقا من قوله تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 179].

**4.** وجانب دعوي ويتجلى في تكوين الدعاة تكوينا متينا وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه ليؤدوا رسالتهم في الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه داخل المجتمع الإسلامي وخارجه ... بأسلوب يتلاءم ومقتضيات العصر ... تنفيذا لقول الحق سبحانه: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}** [النحل: 125].

وكل هذه الجوانب من جوانب مسؤولية أصحاب السلطة في التربية الخلقية داخلة في عموم الأمانات الأساسية التي يكلفهم الله بأدائها للرعية بمقتضى هذه الآية: **{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}** [النساء: 58].

وهكذا تكون مسؤولية تربية الأخلاق وتوجيه الضمير في الشريعة الإسلامية واقعة على جميع فعاليات المجتمع الإسلامي - آباء وأمهات، وأفرادا، وعلماء وأصحاب سلطة - وذلك بمقتضى قول النبي صلى الله

عليه وسلم- فيما رواه البخاري ومسلم - **"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته"** .

نعم إن نوع المسؤولية والوسائل المطلوبة من كل واحد أن يستخدمها تختلف باختلاف الموقع الذي يحتله في المجتمع ... كما يفهم ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم - **"من رأى منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"** ، وفي نفس المعنى يقول جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله: إن الإسلام دين ترتكز فيه الحياة كلها على مبدأ المسؤولية، وهي في مفهومه فردية وجماعية، فما من أحد منا إلا وهو يتحمل حظا منها يضيق أو يتسع بقدر ما يوضع بين يديه ويتصرف فيه من مرافق خاصة أو عامة، و أن مراقبة الله والشعور بالمسؤولية أمام خلقه لحافز كبير على أداء الحقوق والأمانات إلى أهلها، ودافع قوي للقيام بالتكاليف والواجبات في وقتها والمبادرة بتدارك ما فات منها، ولن تؤتي المسؤولية أكلها إلا إذا كان المسؤول يقدر مسؤوليته حق قدرها، ولا يفرط مطلقا في أمرها، وإلا إذا أعطى القدوة الحسنة من نفسه للقريب والبعيد و صرف أكبر حظ من نشاطه في العمل المفيد والقول السديد... " [من رسالة جلالته إلى العالم الإسلامي بمناسبة مطلع القرن 15 الهجري].

فإذا قام كل واحد بواجبه حسب موقعه وفي دائرة استطاعته كانت الأمة الإسلامية - حقا - كما أرادها الله عندما قال: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران: 110].

**5. نتيجة توجيه الشريعة الإسلامية للحياة الخلقية:**

ولقد كان من نتيجة تعاليم الإسلام ومنهجه في تربية الأخلاق وتوجيه الوجدان أن الأخلاق في الفترة الأولى من حياة المسلمين أصبحت تعتمد على ما ورد في الوحي - كتابا و سنة - حيث أصبح هدف الإنسان المسلم هو إرضاء الله تعالى بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ... وفي ذلك يقول المستشرق "جولد زهير" : "إن الإسلام رسم مثلا أعلى غير المثل الأعلى في الجاهلية، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيرا ما يتناقضان: فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لا حد لها، والكرم إلى حد الإسراف والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية ... أما في الإسلام فالخضوع لله والانقياد لأمره والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر وتجنب الكبر والعظمة ... هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة ... "[7].

[7] فجر الاسلام - أحمد أمين. ص 92.

وبهذا / المثل الأعلى الذي وضعه الإسلام انتفضت الأمة الإسلامية من تراب الأرض لتصل إلى عنان السماء: تقوم من شتات متناثر لا يكاد يلتقي إلا على الصراع والحرب فإذا هي أمة صلبة متماسكة تفتح وتعمر وتغزو سائر الميادين العلمية والحضارية ... وتقيم مثلا أخلاقية وإنسانية غير معهودة للبشرية حتى إن البلاد التي دخلها العرب المسلمون فاتحين وهداة مصلحين أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ومن أتى من الأمويين والعباسيين وجدت فيهم الرحمة الرحمة والعدالة والرفق والإنسانية ... ما حدا بالفيلسوف الفرنسي "غوستوف لوبون" إلى أن يقول: "إن التاريخ لم يعرف فاتحين رحماء ومتسامحين ... مثل العرب" وذلك لأنهم كانوا حماة رسالة إنسانية أخلاقية، ومبادئ سامية ومثل عليا نابعة من وحي الله تعالى إلى خاتم أنبيائه عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وفي تصوير أثر الشريعة الإسلامية في أخلاق العرب يقول د. محمد عجاج الخطيب: "... وخرج العرب باعتناقهم هذا الدين الحنيف من نطاق القبيلة المغلق إلى صعيد الإنسانية الواسع، ومن إطار الصحراء إلى العالم الشاسع وانتقلت رابطة الدم والقرابة إلى الأخوة في الدين ... وانتقلت حميتهم للقبيلة إلى نصرة الحق، و أصبح اعتزازهم بالإسلام وبما يقدمونه من تضحيات وخدمات بدلا من اعتزازهم بالإنسان، واتجه حبهم للأمجاد والبطولات إلى تحقيق ما يرضي الله ورسوله وتحولت شجاعتهم وجرأتهم المحصورة في النطاق القبلي إلى شجاعة وجرأة في سبيل نشر الدين الجديد وتحول كرمهم إلى إغاثة الفقراء وإغاثة

الملهوفين، و تزويد الجيوش للدفاع عن معتقداتهم وعن إخوانهم في الدين و تحرير الأمم من نير العبودية إلى الحرية وعبادة إله واحد ... فكان الإسلام شرفا عظيما لهم كما قال تعالى: **{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}** [الزخرف: 44]- وكان المسلمون بحق كما قال تعالى: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران: 110].[8]

كما أنه في تصوير ما آل إليه أمر العرب والمسلمين بالإسلام يقول أمير المؤمنين حفظه الله: "عندما حققت أمة الإسلام في عصرها الذهبي مرد الله منها في إقامة معالم الخير والبر ونشر ألوية المروءة والفضيلة، وضمان العدل والإحسان لجميع بني الإنسان - استخلفها الله في الأرض، فأصبحت خير الأمم وأعلاها شأنا، وأعمها ازدهارا وأوسعها عمرانا، وأقواها نفوذا، وأعظمها سلطانا، وقامت تحت ظلها أكبر دولة عرفها التاريخ تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي غربا إلى مياه المحيط الهادي شرقا ... [من رسالة جلالته إلى العالم الإسلامي بمناسبة مطلع القرن 15 الهجري].

## 6. واقع وآفاق الأخلاق في المجتمعات الإسلامية المعاصرة:

إن الباحث الاجتماعي يلاحظ أن المجتمع الإسلامي المعاصر يتجاذب سلوك أفراده عدة جوانب مختلفة متعارضة أضعفها الدين وأعتاها تقليد المدنية الغربية ولذلك تجد أن الكثير من شبابه قد ساءت أخلاقهم ورق

[8] السنة قبل التدوين: ص 13.

دينهم وأشربوا حب الشهوات في قلوبهم وصاروا لا يبالون بحلال ولا بحرام في الوصول إلى قضاء مآربهم متنكبين الصراط السوي في أقوالهم وأفعالهم وسائر تصرفاتهم غير عابئين بتعاليم دينهم ولا بأصالة تقاليد أمتهم ... مما جعلهم يعيشون صراعا نفسيا و اجتماعيا يكاد يكون أشد عتوا من الصراع القائم عند شباب الغرب ... و السبب في ذلك، هو أن سلطان الدين في المجتمع حينما يصبح مجرد جاذب من جملة الجواذب الكثيرة الأخرى فإنه لا يفيد أكثر من أن يزيد الصراع حدة واوارا ... حيث تصبح إرادة الإنسان نهبا لجملة الدواعي و المؤثرات المتعارضة المتنافرة ... وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [الزمر: 29].

ولقد جرب المسلمون للخروج مما تردوا فيه نظريات وأفكارا مستمدة من الغرب بشقيه - الشيوعي والرأسمالي - حيث ولوا وجوههم شطره: منه يتلقون معايير الخير والشر ومناهج الحياة وأسلوب السلوك ... فكانت عاقبة أمرهم أن دولهم تمزقت طرائق قددا، وأن أرضهم وخيراتهم قد أصبحت للأعداء نهبا، و أن مجتمعاتهم قد خربت ضلالا وفسادا، وأن أفراده قد مسخوا عهرا وانحرافا ... كلها قد اكتوت بلظى متاعب الحضارة المادية المعاصرة وما يسودها من عقائديات وضعية ... بل إن المسلمين لم يستفيدوا من الحلول الوضعية المستوردة إلا أن تخلفوا دينيا وأخلاقيا فتخلفوا اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا ...

و **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}** [الرعد: 11] - و لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فما على المسلمون إذا أرادوا انتشال وإنقاذ أنفسهم مما تردوا فيه إلا أن تتظافر جهود الآباء والأمهات داخل الأسرة وجهود الدول والحكومات في الأجهزة الثقافية والإعلامية وجهود المربين والعلماء داخل المدرسة والمسجد والأندية ... على تكوين بيئة تربوية صالحة قوامها الدين الحنيف والأخلاق الفاضلة ... فيحصنون بذلك الفرد المسلم - عقيدة وعبادة وسلوكا - حتى إذا ما تشبع بالقيم المثلى للشريعة الإسلامية، فتحنا الباب على مصراعيه ليكرع من مناهل العلم و التقنية كيفما شاء ... فبذلك - و به وحده نستطيع أن نعيد سالف مجدنا وعزنا، ونكون من جديد حضارة إسلامية مرتكزة على أهم ما ينقص الحضارة الغربية، ويجعلها غير مستعدة لبنيها ويتهددها بالخطر من كل جهة ... ألا وهو الإيمان بالله والانقياد إلى تنفيذ تعاليمه في جميع ميادين الحياة.

وفي هذا المعنى يقول جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله: "إن الطريق إلى مركز الصدارة بين الأمم مفتوح في وجه الأمة الإسلامية لا يحول بينها وبينه حائل، لكن يلزم لضمان ذلك ألا تقتصر عنايتها على الجانب المادي وحده وعليها أن تواجه حظا كافيا من اهتمامها إلى الحفاظ على تلاحم الأسرة المسلمة وحمايتها من عوامل التفكك والانحلال، وأن تعيد للتربية الدينية و الخلقية ما كان لها من الاعتبار والأهمية في تنشئة الأجيال، وأن تجعل من الأم المسلمة أما مثالية تعتز بأن تكون المربية الأولى للناشئة والأطفال فداء لدينها وإخلاصا لوطنها، وأن نجعل من

المدرسة والكلية والجامعة - إلى جانب المسجد - الملتقى المفضل والدائم للعلم والإيمان ... "كما أننا نجده يقول: "ولنتسلح لمواجهة مسؤوليتنا الثقيلة و المتنوعة في هذا العصر - باكتشاف القوة الفكرية التي هي قوة العلم، وأدوات القوة المادية التي هي قوة السلاح، وطاقات القوة الروحية التي هي الأخلاق ... ولنحول دنيا الإسلام الواسعة التي لا تغيب عنها الشمس إلى مسجد كبير نعبد الله جميعا في محرابه، ونقوم فيه بالخلافة عن الله في الأرض طبقا لما جاء في كتابه، كل بقدر ما أتاه الله من علم وفهم وخبرة وتجربة، وما وهبه من مواهب فطرية ومكتسبة وعلينا أن نتخذ كتاب الله في جميع خطواتنا دستورا ورائدا، ونجعل رسوله المصطفى إمام وقائدا، فبذلك نعود إلى حظيرة الإسلام الصحيح، ونربط الماضي بالحاضر، ونعد الحاضر للمستقبل، ونفتح صفحة بيضاء نقية في تاريخ أمتنا وتاريخ البشرية: "[رسالة جلالته إلى العالم الإسلامي بمناسبة مطلع القرن 15 الهجري"].

وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]. والقائل فيه أيضا: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}** [طه: 123، 127].

و صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال فيما رواه البخاري في الأدب وغيره - **"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".**

**مصدر الدراسة:**

**مجلة الإحياء (مجلة إسلامية جامعة تصدرها رابطة علماء المغرب)**

**العدد الثامن / يوليوز 1966 - ربيع الأول 1417**

**الصفحات 89-113.**

/IhyaeForum

جميـع الحقوق محفوظة © 2019